بين القرآن والإنسان

هناك بعض التداخلات فيما يتعلق بعلاقة الإنسان بالقرآن ، أهمها :

١ـ صلة الوصل بين الله والإنسان! :

في مطالع سورة الرحمن حديث جامعٌ مانعٌ عن شأن القرآن بالنسبة للإنسان، حيث يقول الله سبحانه : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن : ١ـ٤] .

وهذا التناسب بين الآيات على هكذا ترتيب يُعطي أدلةً واضحةً على العلاقة بين الإنسان وبين القرآن ، حيث الرحمن سبحانه ، ثم القرآن المعجز ، ثم الإنسان ، علماً أن بدايات خلق الإنسان ـ آدم عليه السلام ـ سابقةٌ لتنزّل القرآن الكريم! .

وبالتالي ، فالقرآن الكريم موصولٌ بالرحمن من جهة ، ومتصلٌ بالإنسان من جهة أخرى ، مما يدلّ على أن كل ما جاء في القرآن يحمل النفع والخيرية للإنسان ، حتى قبل مولده .

ومما يطمئن أكثر أن القرآن لم يحدث له ما حدث للكتب السابقة من تحريفات وتزويرات ، وذلك لأن الرحمن سبحانه هو الذي حفظ القرآن ، مصداق ذلك قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

فالرحمن هو الذي أنزل القرآن من أجل هداية الإنسان ، فهل يعي العالَم هذا التناسق ؟! .

٢ـ كل ما في القرآن من أجل الإنسان :

ليس القرآن قصصاً وحكايات ، إنما هو ـ في جميع آياته ـ نور وهداية للإنسان، حتى الآيات التي تتحدث عن عجائب الله في الكون ، تهدف إلى تنبيه الإنسان إلى تلك الأسرار ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٤ـ٨٩] .

٣ـ القرآن والكون متوافقين :

ذلك لأن كل ما يدعو إليه القرآن منظم ومتناسقٌ ، وكذلك كل ما في هذا الكون ناطقٌ بهذه الأمور ، وهذا هو السرّ وراء تركيز القرآن على مخاطبة الإنسان بالنظر والتأمل والتفكر في هذا الكون ، لعله يتجاوب مع ذلك التنسيق العجيب ، مثال ذلك : دعوة القرآن للإنسان إلى التوقف عند حركات كل ما في هذا الكون ، وكذلك لسان حال الكون ينطق بأفصح لغةٍ عن عظمة الله سبحانه ، مصداق ذلك قوله عز وجل : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٣٧ـ٤٠] .

٤ـ لا نجاة للإنسان إلا بالقرآن :

كل الأمور الضرورية للإنسان ، كالماء مثلاً ، تكفّل الخالق سبحانه بحفظها ، وإلا لو وَكَلَها الله للإنسان لما استطاع حفظها ، وبالتالي كانت النتيجة هلاكاً وخسراناً ، قال

تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٠]، ويقول سبحانه : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٨-٧٠] .

لكن الماء مثلاً مهم للإنسان في الدنيا فقط ، بينما القرآن مهم للإنسان في الدنيا والآخرة ، بحيث يأتي يوم القيامة ليدافع عنه ، مصداق ذلك قوله صلوات الله عليه : « **يُؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا ، تقْدمه سورة البقرة وآل عمران ، تُحاجّان عن صاحبهما** » .

ثم إن الماء مثلاً ذُكر بالبركة في آيةٍ واحدة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ [ق: ٩].

بينما وُصف القرآن (بالمبارك) في أربعة مواضع ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] . . وهذا يؤكد على أن نجاة الإنسان وهدايته، في كل وقتٍ وحين ، لا تكون إلا بالقرآن ، مصداق ذلك قوله سبحانه : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا

يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ـ١٢٤].

٥ـ ما أكثر ما يتعلم الإنسان من القرآن!!:

فهو يتعلم من القرآن حكمة خلقه، وسرّ وجوده، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥ـ١١٦].

ويتعلم من القرآن أن هناك داراً بعد دار الدنيا، تُدعى دار الآخرة، فيها حساب ولا عمل، وجنة أو نار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

ويتعلم من القرآن الغاية من وجود البشر، والحكمة من خلقه، وذلك من أجل التعامل بالحسنى مع الآخرين، كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ويتعلم من القرآن اتخاذ أسباب القوة ، خاصةً عن طريق العلم والعمل، للوصول إلى العدل بين بني البشر، قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد : ٢٥] .

ويتعلم الإنسان من القرآن الآداب، والأخلاق، والسلوك، ونحو ذلك .

لكن المكابرين المعاندين ، والذين لا تُعجبهم تعاليم القرآن لا يعيشون في الدنيا إلا تعاسةً وخسراناً ، ويوم القيامة يحشرون في جهنم وبئس المصير ، مصداق ذلك قوله سبحانه : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام : ١٢] .

فهل وعت البشرية أسرار علاقة القرآن بالإنسان ؟!! . .

* * *